قبلها بيوم واحد!

أنيس منصور

في ٥ يونيو ١٩٦٧ كان نصف سكان مصر فى العاشرة من أعمارهم.. وهم لذلك لا يعرفون ما حدث بوضوح فى ذلك اليوم. أنا أعرف. ولكن لا أقوى على النظر الى المجلات التى صورت الهزيمة العسكرية والهوان العسكرى فى سيناء.. وفى مصر وفى كل البلاد العربية وغيرها. وهى صور حزينة، لم يعد أحد قادرا على أن يراها أو يتذكرها.. لأنها موجعة للقلب ولا أريد لأحد مزيدا من ذلك، فيكفينا ما أصابنا، ويكفينا جدا ما لدينا..

ولكن أذكر يوما قبل ذلك.. ويوما آخر بعد ذلك..

فى يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ كنت على حدود اسرائيل، القوات المصرية من حولى: حشود هائلة. دبابات ومدافع وشباب فى نضارة الورد، وحرارة نار جهنم.. ولا يتكلمون إلا شعرا. لقد جاءوا ليستشهدوا من أجل مصر ووراء ذلك الزعيم الذى ألهب الدنيا ومشى بقواته أمام السفارة البريطانية والأمريكية فى القاهرة معلنا للعالم: أنه سوف يحارب. ولم يكن جادا فى ذلك، ولا مستعدا. وإنما كان يغامر بجيش مصر ومصر والعرب..

ورحت أجمع قصائد الشبان لأنشرها عند عودتى. أكثر هؤلاء لم يعودوا. ومن بينهم عدد من أقاربى وأصدقائى وقد أدخلتهم فى حسابى كجزء من التضحية الدموية التى دفعتها أسرتى من أجل مصر! ولم أتصور أننى سوف أدخلهم فى حساب الموتى، وإنما فى حساب الأحياء والأمجاد الحية.. ولكنهم ماتوا جميعا!

وفى الجبهة سمعنا العجب، ولكن لأننى لست عسكريا، لم أعرف أين القوة وأين الضعف ولكن بعد ذلك عرفنا.

سمعنا أن بعض الجنود على الجبهة لم يذوقوا الطعام أياما. شىء غريب عجيب. فاستوقفنا جنود مصريون خرجوا من دبابة، ليقولوا لنا: لم نأكل منذ أيام!!

ولم يداخلهم الخوف رغم وجود ضباط المخابرات العسكرية. وأفزعنا ذلك. وكنا نحمل ماء باردا وبرتقالا وخيارا وجبنة.. فأعطيناهم كل ما معنا..

ولما التقيت بالفريق مرتجى فى الجبهة. قلت له: أنت أب لأسرة بمئات الألوف وفى حالة حرب ولا تستطيع أن ترعى كل هؤلاء. وهذا طبيعى!

وحاولنا أن نتصل بالعريش تليفونيا من مركز القيادة لكى نحجز غرفة لننام فيها. وظللنا نوالى الاتصال ساعات ولم نفلح، رغم أننا على مسافة مائة كيلو متر من العريش!

■■ لا تنس أننا فى يوم ٤ يونيو..

وقيل لنا عودوا إلى الاسماعيلية. وحددوا لنا الطريق المناسب. وفى الطريق ظللنا ندفع السيارة فوق الرمال، ونضع تحتها الطوب والأخشاب حتى طلع النهار علينا.. وبذلك لم نكن فى حاجة إلى البحث عن فندق فى الاسماعيلية أو العريش..

وعلى ممر إحدى الطائرات طلب منى أحد الطيارين أن أدخل إحدى الطيارات على سبيل الفرجة. ودخلت وأغلقوها. وحاولت أن أخرج منها فلم أستطع. وكدت أموت. مع أنه من الضرورى أن يخرج منها الطيار فى ساعات الحرج..

■■ لا تنس أننا يوم ٤ يونيو ١٩٦٧..

ووقفت مع الطيارين أتعجب لهذا الذى حدث. ويبدو أن هذا النوع من الشكوى شىء ممل. ولذلك تفرع الحديث إلى مشكلة الكلاب وقتل الكلاب فى مصر. ولم أفهم أول الأمر وبعد ذلك أدركت أننى أثرت حملة للقضاء على الكلاب الضالة التى تنبح طول الليل. وكنت أيامها أسكن فى البيت المجاور لأم كلثوم، وأيامها كان اللواء محمود السباعى مديرا للأمن. وساعدنى محمود السباعى فى القضاء على بعض الكلاب. ثم طلبت إليه أن يرحمنى من قتل الكلاب. لأن الطريقة التى يقتلون بها الكلاب تدخل تحت كلمة «الوحشية».. وكانت السيدات يصرخن كلما رأين أحد رجال أمن القاهرة يمسك الكلب ويضربه على رأسه حتى الموت.. وكأنه يضرب كل سكان الحى.. فإذا ثار الناس عليه أشار رجل الأمن الى حيث أسكن. ويقول: أنا عبد مأمور

وهو كذاب طبعا. فلا هو عبد مأمور، ولا أنا سيد الأمر.. وإنما سيد الأمر هو محمود السباعى..

وكان من بين الطيارين واحد له كلب. وهو يسكن فى البيت المواجه للبيت الذى أسكن فيه. وكان يخاف على كلبه هذا من الموت..

وهذه المناقشة عن موت الكلاب هى التى أنقذت حياتى، أو أنقذتنى من الوقوع فى أيدى اليهود. فقد جاء فى هذه اللحظة الفريق صدقى محمود..

وكان فى غاية اللباقة والأناقة أيضا. وصافح الطيارين وسألنى ما الذى أفعله. فقلت له: إننى أنتظر الأتوبيس!!

وضحك فعاد يسألنى: إن كنت أريد العودة إلى القاهرة. وكان هذا ما أريده فعلا. وصحبنى فى طائرته التى كان يقودها حسين عبد الناصر، أخو جمال عبد الناصر.

وكنا جميعا آخر الذين عادوا من الجبهة فى يوم ٤ يونيو ١٩٦٧..

ورغم الحذر الذى كان باديا على كلمات الفريق صدقى محمود وكذلك الفريق مرتجى، فقد كانا على يقين من أن هناك حربا.. ولكن لم يكونا مستعدين لذلك!

ولا تزال ترن فى أذنى عبارة قالها المرحوم اللواء عبد العزيز سليمان: اسمع.. أنا لو كنت جمال عبد الناصر لأعدمت كل هؤلاء الضباط... وأشار بعصاه إلى عدد كبير منهم، كل واحد له «كرش». وعاد يقول: ما معنى أن يكون للضابط كرش.. معناه أنه غير لائق جسميا. ولا يصح أن يكون مثلا أعلى!

■■ لا تنس أننا يوم ٤ يونيو ١٩٦٧.

وقد صحبنى اللواء عبد العزيز سليمان إلى حيث الحدود مع إسرائيل وقال: هل تريد أن تعرف الخيبة التى نحن فيها؟

قال ذلك على مسمع من ستة من الصحفيين أحباء برزنون. وتحمسنا لنرى خيبة مصر، التى لم يصدقها أحد فى ذلك الوقت. وأشار إلى واحد من الجنود بالملابس المدنية، وقال له: اشرح للسادة الصحفيين كيف اكتشفت أن اليهود يستخدمون الآن حرب الميكروبات؟

وفى تردد شديد واستحياء وحذر فتح الرجل صندوقا وأقفله بسرعة. انتهى الدليل على أن اليهود بدأوا يستخدمون حرب الميكروبات ضد مصر!

ولم يكن فى الصندوق إلا عدد من الذباب الصغير.. نحن فى أوائل الصيف. وعلمنا أنه أرسل هذه العينات الى مصر.

ولما وجد الرجل أن هذا الدليل لم يقنعنا طلب إلينا أن

نصعد إلى أبراج المراقبة التى تركتها قوات الطوارىء الدولية.. وسوف ترى أن رجلا يهوديا يمسك ملاءة بيضاء. وهذه الملاءة البيضاء قد ملأها ميكروبات.. ثم إنه ينفضها كل يوم عند الخطوط اليهودية، فيدفعها الهواء إلى ناحية مصر.. ومن برج المراقبة وجدنا رجلا يمسك شيئا أبيض. ولم نفهم. وإن كنا قد عرفنا فيما بعد أنه كان يضع علامات بيضاء للدبابات التى سوف تدخل الأراضى المصرية من هذا الموقع!

■■ لا تنس أننا يوم ٤ يونيو ٦٧

وفى الليل وكان معنا اللواء رشدى حسان من التوجيه المعنوى، وهو رجل لطيف مهذب.. وكانت الدنيا مظلمة تماما. وفجأة خرج لنا بعض الجنود المصريين يصرخون: كلمة سر الليل؟

أى لابد لكى يتحرك إنسان من مكان إلى مكان أن يعرف كلمة السر، وإلا كان عدوا أو كان هاربا.. ولم يكن أحد يعرف كلمة سر الليل.. وإنما خرج واحد من الضباط المرافقين لنا وصرخ فى الجنود قائلا: افتح يا دنمة!

وانفتح الطريق، دون أن نعرف أو نذكر لهم كلمة سر الليل!

هذه الحوادث إذا وضعت بعضها إلى جوار بعض تجد صورة مؤلمة جدا لما كان عليه الضبط والربط.

وفى نفس الوقت ارتفعت الحالة المعنوية لجميع الضباط الصغار... أما كبار الضباط والقادة، فلم تكن هذه حالهم؟

أما من الذى نلومه بعد ذلك.. أى بعد النكسة واليوم، وما الذى ستفعله الأجيال القادمة. فليس هنا والآن مكان لبحثها.. فسوف تشبع الأجيال القادمة من أكل لحوم البشر نيئا ومشويا.. وسوف نجد أمجادا أخرى لآخرين ماتوا بلا مجد، أو عاشوا بلا شرف!

وفى يوم ٤ يوليو ٦٧، كنت فى ألمانيا الغربية. وسمعت قصص الهوان الذى لقيه المصريون. فقد فضحهم التليفزيون الأوروبى... فلم يتصور المصريون أن ما يقوله «صوت العرب» من القاهرة كذب فى كذب.. ولا ما يقوله جمال عبد الناصر تهويش فى تهويش!.

وقد أغلق المصريون بيوتهم على أنفسهم وراحوا

● كتاب صدر أخيرا لرئيس قسم الفلسفة بجامعة الأردن عن العرب كيف كانت صورة العرب فى عهد الاستعمار والانجليز وكيف [illegible]

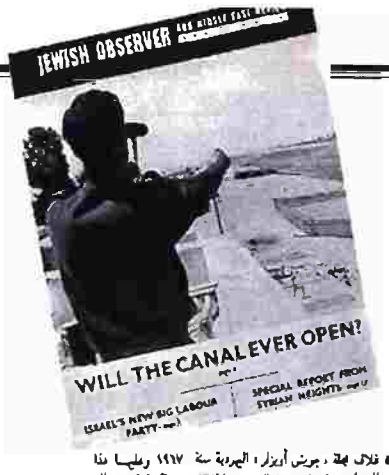

● غلاف مجلة «جويش أوبزرفر» اليهودية سنة ١٩٦٧ وعليها هذا العنوان: هل تفتح قناة السويس إطلاقا؟ ولكنها تفتحت الى الأبد!

يبكون من هول الفضيحة. ورفعوا سماعات التليفون حتى لا يسمعوا شتائم اليهود لهم.. ولم يكن ٥ يونيو ٦٧ هزيمة عسكرية، ولكن هزيمة لمصر كلها، وعارا على الأمة العربية.. وبعد النكسة كتبت أقول: إذا انهزمنا فنحن مصريون، وإذا انتصرنا فنحن عرب!

ولم تكن هذه إلا عبارة مكثفة لمعان توجع القلب على الذى أصابنا..

فقد هان أمرنا على أنفسنا وعلى كل الناس. وتحول كل الناس إلى قادة عسكريين منتصرين بلا معركة، وأصبح المصريون جنودا مهزومين فى كل معركة، وفى أية معركة قبل أو بعد ذلك!

ولم تكن هزيمة مصر العسكرية إلا صورة لهزائم مصر فى كل مجال. حتى قيل إننا لو دخلنا مباراة فى كرة القدم مع الفريق الاسرائيلى فسوف نهزم أيضا.

وقيل فعلا إن الفريق مرتجى، أصبح على رأس النادى الأهلى ليستأنف الاستعداد لمباراة مصر وإسرائيل على كأس الهوان ودورى الهزيمة!

مع أن الفريق مرتجى قد نبه إلى أن الذى يحدث فى الجيش لا يمكن أن يؤدى الى نصر فى أية معركة. ولكن أحدا لم يستمع إليه!

ومن هنا كانت الصعوبة التى واجهت أنور السادات بعد ذلك.. كيف ينقذ مصر من مصر أولا.. ثم كيف ينقذها من العرب ثانيا.. ثم كيف يوقف الدنيا وراءنا لننتصر على إسرائيل؟

لقد فرق جمال عبد الناصر بين كل العرب.

وجمعهم أنور السادات..

لقد سد جمال عبد الناصر قناة السويس..

وفتحها أنور السادات.. وكان لفتح القناة هو المرة الثانية منذ إنشائها. فقد انفتحت أول مرة أيام الخديو اسماعيل. والمرة الثانية يوم ٥ يونيو ١٩٧٥.

وكان انفتاح القناة، انفتاحا ملاحيا وسياسيا وانفتاحا اقتصاديا أيضا..

ولم يتحقق للقناة الانفتاح، الا بعد العبور..

وكان العبور انتصارا..

وبعد العبور انفتحت القناة!

وقصة العبور مثل قصة النكسة، طويلة..

والناس ينسون: الهزيمة وينسون النصر..

والناس مشغولون بالبحث عن الطعام الأفضل، والسكن الأكبر، والمقعد المريح فى السيارة والمدرسة، وعن السرير المناسب فى البيت والمستشفى..

ولا أحد نلومه على ذلك. فالحياة هى الأخرى: شجاعة على الصبر، وشجاعة فى الاستمرار، وشجاعة فى أن يكون هناك أمل..

أهم من ذلك كله: أن الصورة تغيرت..

صورتنا فى المرآة: أى صورتنا أمام أنفسنا.. كبرنا واحترمنا أنفسنا لأننا استطعنا أن نهزم عدونا، وأن ننتصر على أنفسنا.. وأن نزرع الأرض البور، والنفوس البور أيضا.. ولأن لدينا أملا. وكان الأمل قد راح. قد غرق فى القناة، مع كرامتنا وعزتنا..

ولما انفتحت القناة انفتحت شهيتنا على المستقبل..

وتغيرت مقاييس الصورة التى نراها لأنفسنا.. والتى يراها غيرنا لنا أيضا.. وخلاصة الصورتين: أننا لا نرضى بالهوان، وأننا قادرون على النصر وعلى الاستمرار بعد ذلك..

وإذا كانت القناة معركة، فإن الصحراء أيضا معركة. وتحويل الصحارى إلى مدن وتحويل الصحارى إلى أرض مزروعة. لا تقل أهمية وخطورة عن فتح القناة، وفى سيناء..

إن ٥ يونيو ٦٧ قد أصبح وراءنا الآن.. ويجب أن يظل كذلك.

ومنذ أيام صدر كتاب بالانجليزية بعنوان «العرب والانجليز» للأستاذ سارى ناصر، رئيس قسم الفلسفة بجامعة الأردن. وهذا الكتاب لأنه صدر بالانجليزية للانجليز وفى بلادهم، فهو قد عرض الصورة المشوهة للعرب. وتاريخ «العربى قبيح الوجه». ومن أين جاءت هذه الصورة.. وتتبع مصادرها من أيام المغامرين والمستشرقين وألف ليلة وليلة وأفلام الرومانسية الأمريكية.. ثم الأغانى العربية..

وعلى استحياء شديد وفى آخر سطر من الكتاب وجد أن صورة العربى قد تغيرت الى الأفضل بسبب موارد البترول وحرب أكتوبر وألوف السياح من العرب فى بريطانيا وأوروبا والتبادل الثقافى. والأمل - فى رأى المؤلف - فى محاولة الانجليز أن يفهمونا!

والمؤلف معذور فى هذا الاحتياط الشديد.. وفى الحديث عن الماضى فقط، والابتعاد - قدر المستطاع - عن الكلام عن المستقبل.

ولكن صورة العرب قد تغيرت تماما بعد حرب أكتوبر وقد كسبنا الكثير جدا. وقد استثمرنا هذا النصر. ولكن ليس إلى أبعد الحدود. وليس أسهل على العرب من أن يبددوا مكاسبهم بنفس السفاهة التى يبددون بها أموالهم.. ولذلك تصبح انتصارات أكتوبر وراءنا، كما أن ٥ يونيو وراءنا..

فنحن لم ندرس انتصارات أكتوبر بنفس السرعة التى فعل بها اليهود عندما انتصروا فى ٥ يونيو ٦٧..

وإذا كان العرب ممزقين داخليا فإنهم أمام: عدو واحد.. ولكن العرب ليسوا شعبا واحدا ولا صديقا واحدا، فإن من بين العرب من هم أكثر عداوة لنا من اليهود - مع الأسف!

أنيس منصور